

إن ما ينتظر الأحرار في العراق أكبر والتحديات أخطر من التي يواجهونها اليوم، وهنا يأتي دور العلماء والمصلحين للترشيد والتوجيه والتأثير لأن المعركة تتداخل فيها الجبهات وتتنوع فيها ساحات النزال، والخطأ كل الخطأ في استنزاف الاحتياطي الاستراتيجي النفسي والقتالي والسياسي في منازلة واحدة. إن معارك الفلوجة والرمادي والأعظمية واشتباكات مدن الجنوب، لها ما بعدها، فليتها أهل لما بعدها.

ما يجري حالياً في العراق، ليس حرباً أهلية كما تنبأت بها واشنطن بين السنة والشيعة، أو بين العرب والأكراد، وإنما هي حرب مفتوحة غير متكافئة أججها الاحتلال، الذي شن بقواته حملة مسعورة في المناطق السنية وبدرجة أقل في بعض المدن الشيعية. وإن "تمرد" الفلوجة على الطغيان لم يظهر مع الاحتلال الأمريكي للعراق، فبالرغم من أن المدينة عربية سنية إلا أنها استعصت على حكم صدام لضمان ولائها، حيث رفض أئمتها طاعة أوامره في مدحه شخصياً في الخطب، وخصهم صدام باضطهاد سياسي رهيب. وقد بدأت الفلوجة المقاومة فعليا في 28 إبريل من السنة الماضية، عندما فتحت القوات الأمريكية النيران على مجموعة من 100 إلى 200 متظاهر سلمي، وقتلت منهم حوالي 15، وبعدها بيومين أو ثلاثة قتل محتجون آخرون، وتسببت هذه الحوادث بانخراط أناس كثيرين في المقاومة مشكلين مجموعاتهم الخاصة. القمع وإجراءات العقاب الجماعي المتكررة حولت المدينة إلى مكان يموج بالغضب ضد الاحتلال بسرعة مثيرة، وبدرجة أكبر حتى من الأماكن الأخرى، وآخر حدث كان قتل أربعة مرتزقة متعاقدين مع الشركة الأمنية الخاصة "بلاكووتر"، وصنعت منه القوات الأمريكية ذريعة لشن حرب مفتوحة على الفلوجة، وفي الحقيقة، فإنه قبل أسبوع فقط، صعد جنود البحرية الأمريكية من غاراتهم على المدينة وقتلوا على الأقل سبعة مدنيين. صحيح أن الصدر وانتفاضته تصدرت أحداث العراق، لكن الفلوجة والرمادي والأعظمية وغيرها تصنع الحدث الذي هز أركان بوش في واشنطن، وقد رد بريمير على نفوذ الصدر الشعبي المتنامي بتجاهله، والآن يحاول استفزازه من خلال غلق جريدته واعتقال مسئول اتصالاته، وجره إلى مواجهة شاملة لم يخطط لها الشيعة (وتحديدا التيار الصدري) وإنما اتسمت انتفاضته -وإلى الآن- بالعشوائية التي تعكس إلى حد كبير ضعف الخبرة والتخطيط ونقص التجربة.

لكن لماذا يدفع بريمير بالجنوب الشيعي "الهادئ" نسبياً إلى المواجهة؟ من الاحتمالات الواردة والممكنة، أن واشنطن يئست من خططها لتسليم السلطة لحكومة عراقية مؤقتة في 30 يونيو، وإثارة الفوضى تجعل من إعلان التسليم خطوة متعذرة، وهذا الاحتمال وإن كان يسيء لجورج بوش ويؤثر على حملته الانتخابية، لكنه

أقل ضرراً من التسليم في ظل معركة تشتعل تحت أقدام القوات الأمريكية والرفض الواسع للدستور "الأمريكي" المؤقت!.

وبعيداً عن حسابات الأمريكان، يبدو أن الحرب في العراق دخلت مرحلة جديدة باشتباك مليشيات مقتدى الصدر مع قوات الاحتلال. وفي بغداد كان هناك إحساس بأن الأزمة تتحرك خارج السيطرة، خاصة مع فتح جبهة جديدة من المواجهات.

ومن المؤكد أن المقاومة احتضنها الشارع العراقي، ما عادت لصيقة بتنظيمات ومجموعات من توجهات مختلفة وربما متضاربة، والخط البياني للاستعدادات النفسية والقابليات لتبني هذا الخيار في تصاعد مستمر، لكن ما يثير المخاوف هو أن تسارع وتيرة التوسع الجغرافي والشعبي للمقاومة قد فاجأ ليس فقط الأمريكان بل حتى علماء وساسة العراق ووجهائهم وأعيانهم، وهو ما يفرض تحدٍ من نوع خاص، إذ إن ما سببه الاحتلال والمرتزقة من سخط عارم بجرائمهم عزز خيار المواجهة في حين أن الخطاب الوطني السائد لم يستوعب بعد تفاعلات الساحة وتطورات الأوضاع واتجاهات الأحداث، نعم كان لموقف هيئة علماء العراق اليوم موقف ناصع، لكن ماذا عن قيادة هذه الجموع الغاضبة وتوجيه هذا "الصمود"، وتفعيل حركة الاحتجاجات والتلاحم في ساحات المواجهات؟، إن اللحظة التاريخية الراهنة في العراق تفرض حضوراً قيادياً مبصراً وواعياً للعلماء والمصلحين والقوى الفاعلة، حيث إن الجماهير الآن مستغرقة في الراهن منكفئة على سياسة "الهدم الهدم، الدم الدم"، وتحتاج إلى من يسوس هذا الزخم ويضبط حركته بما يحقق أكبر قدر من الاستنزاف للمحتلين والمرتزقة، ثم إن القضية لا يمكن أن تُختزل في مطاردة هنا ومواجهة هناك وتصريف للجهد وإفراغ للوسع في منعطف حاسم كالذي نعيشه، حيث إن ما ينتظر الأحرار في العراق أكبر والتحديات أخطر من التي يواجهونها اليوم، وهنا يأتي دور العلماء والمصلحين للترشيد والتوجيه والتأثير لأن المعركة تتداخل فيها الجبهات وتتنوع فيها ساحات النزال، والخطأ كل الخطأ في استنزاف الاحتياطي الاستراتيجي النفسي والقتالي والسياسي في منازلة واحدة. إن معارك الفلوجة والرمادي والأعظمية واشتباكات مدن الجنوب، لها ما بعدها، فليتها أهل العراق لما بعدها.